13- أدب الرحلة

تمهيد:

السفر والتنقل ظاهرة متأصلة في الإنسان منذ القديم، بل تتعداه إلى غيره من الكائنات والمخلوقات، إذ أن الحيوانات تهاجر وتتنقل من مكان إلى مكان، والطيور تهاجر، وكذلك الأسماك.

وأثناء الرحلة يعمد الرحالة والكتاب إلى تغطية رحلاتهم بوصف البلاد التي يرتحلون إليها أو التي يمرون بها، كما يصفون الأقوام والأشخاص الذين يقابلونهم، والطرق التي يسلكونها، والعنت والتعب الذي يلاقونه من جراء مشقة السفر.

دوافع الرحلة:

عادة ما تكون الرحلة لأغراض معينة ودوافع مخصوصة من أهمها:

الدافع **الديني**، كأن يسافر الرجل إلى البقاع المقدسة من أجل آداء فريضة الحج.

الدافع **العلمي**، ويكون الرحلة من أجل طلب علم ديني أو دنيوي كالبحوث الجغرافية.

الدافع **السياسي**، فقد يرسل الحكام الوفود والسفارات إلى الدول لأغراض سياسية.

الدافع **السياحي** أو **الثقافي** للترويح عن النفس أو المغامرة، أو رؤية المعالم العمرانية أو الطبيعية الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج أو الكهوف والمغارات.

الدافع الاقتصادي كالتجارة وما يتعلق بها.

الدافع **الصحي**، كطلب العلاج للنفس أو الجسم. وقد تكون الرحلة **لأغراض أخرى**.

لذلك عرف التراث الإنساني عامة والتراث العربي بشكل خاص كتبا في الرحلة نذكر منها (رحلة ابن جبير محمد بن أحمد الأندلسي إلى الحج عام 1183م) ، و(رحلة ابن بطوطة محمد بن محمد المولود بطنجة عام 1304م) ، و(التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لعبد الرحمان بن خلدون المولود بتونس المتوفى عام 1406م)، وقد ركز فيها على الترجمة لنفسه ولحياته.

أمثلة من أدب الرحلة في العصر الحديث:

تواصلت الكتابة في أدب الرحلات حديثا، بل إن المكتبة العربية تزخر اليوم بمؤلفات كثيرة في هذا الميدان كتبت بأقلام أدباء صوروا من خلالها رحلاتهم صوب أوربا،

وأمريكا، والبلاد الإفريقية والآسيوية، حيث نذكر كتاب (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) لرفاعة رافع الطهطاوي (1801- 1873) الذي أرسله محمد علي إماما وواعظا على رأس بعثة علمية من الطلاب إلى فرنسا، و (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) لأحمد فارس الشدياق (1804- 1887)، و(رحلة إلى أوربا 1912) لجرجي زيدان (1861- 1914)، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام (فرنسا وإنجلترا وسويسرا)، و(المغرب الأقصى) لأمين الريحاني (1876- 1940)، و(شرق وغرب) لمحمد حسين هيكل (1888- 1956)، و (رحلة إلى الحجاز) لإبراهيم عبد القادر المازني (1889- 1949)، وفي الجزائر نذكر كتاب (تجارب في الأدب والرحلة) لأبي القاسم سعد الله الذي ضم قسم منه رحلة المؤلف إلى المغرب ورحلته إلى الجزيرة العربية، لكن بقية أقسام الكتاب الثلاثة كانت في الأدب والنقد والقصة والشعر، وكان قد ظهر في القرن الثامن عشر قبل تجربة سعد الله رحلة ابن حمادوش الجزائري إلى البقاع المقدسة الموسومة ب (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال) لعبد الرزاق محمد بن محمد المولود في مدينة الجزائر (1695- 1785)، وحققها أبو القاسم سعد الله، والرحلة الورثيلانية الموسومة بـ(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) رحلة إلى البقاع المقدسة في جزأين للحسين بن محمد الورثيلاني (1713- 1779)، حققها محمد بن أبي شنب.

وفي شأن رحلة الطهطاوي يقول صاحبها في التعريف بها والغرض من تأليفها: «وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائه، بل هي مشتملة أيضا على ثمرته وغرضه، وفيها إيجاز العلوم والصنائع المطلوبة، والتكلم عليها، وعلى طريق تدوين الإفرنج لها، واعتقادهم فيها، وتأسيسهم لها» ، أما عن أسلوبه ولغته فيقول: «وقد حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الإيجاز، وارتكاب السهولة في التعبير، حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه، والوفود على رياضه، ولو صغر حجمه وقل جرمه».

ويرى عمر الدسوقي بأن الطهطاوي في كتابه ذلل اللغة العربية لوصف الحضارة الغربية، وحاول إيجاد بديل للكلمات الأعجمية بالعربية، وأحيانا يعرب الكلمة ويطوعها للسان العربي، وقد يستعمل العامية أو التركية، لكنه على العموم يجنح إلى الترسل في القول والبعد عن السجع. كما أنه يكثر من الاستشهاد بالأشعار له ولغيره ويحسن أن نورد له

بعض الفقرات، فهو يصف مائدة الطعام حين وصولهم مرسيليا قائلا: «ولم نشعر في أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة في غالبها، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية، لا نعرف لغاتهم، ونحو مائة كرسي للجلوس عليها، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض، فضلا عن الجلوس بالأرض، ثم مدوا السفرة للفطور، ثم جاءوا بطبليات عالية، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من (القزاز)، وسكينا، وشوكة، وملعقة، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء، وإناء فيه ملح، وآخر فيه فلفل، ثم رصوا حوالي الطبلية كراسي، لكل واحد كرسي، ثم جاءوا بالطبيخ».

وحين يشرح المادة الأولى من القانون الفرنسي يقول:«سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة، معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون، حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ فيه الحكم كغيره، فانظر إلى هذه المادة الأولى، فإن لها تسلطا عظيما على إقامة العدل وإسعاف المظلوم، وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم» ، وكأني بالطهطاوي يريد لينصح لحكام مصر ويدعوهم إلى إقامة العدل والمساواة وإنصاف الفقراء والمظلومين.

ومن رحلة الورثيلاني إلى الحج نسوق هذا النص الذي يصف فيه آداء الطواف والسعي: «وطفنا بالبيت سبع طوفات، للقدوم نوينا هذه الحركات، فأتممنا ولم نبال بما لنا في تقبيل الأحجار من الازدحام، والمورد العذب كثير ازدحام، وبعده أوقعنا ركعتين خلف المقام، وعدنا للبيت فوقفنا بالملتزم، وشربنا من ماء زمزم، ودعونا في ذلك كله بالأدعية المأثورة، ونظم كلماتها المنثورة، فعاودنا بالحجر بالاستلام، ناوين سنة السعي كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام، فخرجنا لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا، كما روي عن معدن الصفا، وبدأنا بما الله به بدا، فارتقينا على الصفا، ووقفنا، وللكعبة الشريفة استقبلنا فهللنا وكبرنا» ، ولا يخفى على القارئ الأسجاع المصنوعة في هذا النص، لكن الكتاب في مجموعه يتراوح بين السجع تارة والترسل والانطلاق تارة أخرى، وتلك ظاهرة شائعة في نثر هذه الفترة التي كان الورثيلاني من أعلامها.